١. الخوف من العالَم ومن أخطارِهِ

لا يتعلّق الأمر بالجُبن، أيْ بِالخَوف من التَّعرُّض لِسوءِ المعاملة أو من عدمِ القدرة على عيش حياةٍ مُرفَّهة هادئة. بل إنّه يتعلّق بِمعرفةٍ حقيقيّة بالخبث الروحي والأخلاقي للعالم وبِالصعوبة الجادة للبَقاء مخلِصين لشريعةِ الله.

وإن كنّا صادقين:

كم مِن الصعبِ البَقاء أنقياء في العالم مع كثرة الحوافز والأمثلة والإغراءات الآتية من جميع فئاتِ الأشخاص والصُّحبة والقراءات وظروفِ الحياة!

كيف تكون صالحًا في عالم يكون فيه من الحماقة أن تكون مخلِصًا، وتَكون فيه مسيحيّتُكَ سببًا للنُّفور، وفيه مِن غيرِ الطّبيعي ألا تكون قذرًا ووحشيًا، وتَكون فريسة سهلة لِكونِكَ ذا ضميرٍ؟

صحيح أنه يوجد أيضًا قديسون في العالم، ولكن بأيِّ ثمن؟ ما هي الشخصية التي يجب أن تكون لدى المسيحيين؟ ناهيكَ عن أنهم يَصِلون مرات عديدة إلى درجة مُعيَّنة من الخير، ولكن بعد ألفِ سقطةٍ واضطراب ثُمّ بِضربةٍ مفاجِئة من النّعمة.

وهل يمكنني أنا أن أشعر بأنني قويّ؟ فأعتقد أنني أستطيع أن أجتاز هذا المستنقع دون أن أمتلِئَ بالوَحل؟

كثيرٌ من الشباب، عند رؤية هذا المشهدِ البَغيض للعالم، لا يتأثرون. إنهم لا يفكرون أو يتطلعون إلى أن يكونوا صالحين. ومن ناحية أخرى، يشعر آخَرون بالتأثر والانفعال؛ وهذا يعني أنهم يحملون في قلوبِهم بِذرة طريقٍ سامٍ ومقدَّس، أيْ طريقِ الدّعوة.

٢. الانجذاب إلى الطَّهارة

طوبى لأنقياءِ القلوب لأنهم سيرَوْن الله، بل ومراتٍ عديدة... سوف يلمِسونه في الأسرار الإلهية. أحيانًا يلتقي المَرءُ بشبابٍ هم استثناء، يمُرون بعالم من الخطيئة ويبدو أنهم لا يشعرون بشيء، ويعيشون في بعض المواقفِ الصعبة ويبدو أنّهم عميان، فهم مَليئون بالحياة والقوة ويتحكَّمون تمامًا في أنفسِهم.

من الواضح أن هناك عناية إلهية خاصّة بِهم. بينما يسقط آخَرون في مناسبات أقل خطورة، وهُم... لا بتاتًا، وغالبًا بدون جهدٍ كبير. الله يَحفظهم دون مَساس؛ يَضع ملاكُ الطهارة دِرعَ جَناحَيه أمام أعينهم فلا يرَون ولا يسمعون ولا يفهمون؛ هم يَعرفون إنّما لا يَسقطون.

لِأيِّ سببٍ يحفظُهم الله بِلا مَساس؟ بالتأكيد لسببٍ ما. فالله يعمل دائمًا لِغرضٍ ما. على الأرجح لأنه يريدهم على الطريق الذي لا يمكن السير فيه دون طهارة. بل وأكثر من ذلك إذا كان الشّابّ يعرف وقد رأى ويَفهم، وربما شعر في ذاته بأشدِّ الأهواء عُنفًا ولكنه وجد في النعمة، وفي شيءٍ في شخصيته، القوة والطاقة حتى لا يسقط. مِن ثَمَّ يَتّضح أن في هذا إصبعَ الله وأننا أمام شابٍّ مَدعوٍّ إلى الكمال.

هذا واضحٌ جدًّا أيضًا عندما يكون هناك ما يسميه الزّاهدون «غريزةُ» الطهارة. إنه شيء لا يمكن تعريفُه أو وصفُه، ولكنه مع ذلك يجعل الروح مُرهَفة الحساسيّة بحيث تتجنَّب أيَّ ظِلٍّ من النّجاسة، وربما حتى دون معرفة معنى الطهارة. كما هو الحال مع الجُفون التي تَنغلق غريزيًّا بمُجرّد أن تقترب من العين أيّة بَعوضة غيرِ مناسبة. إنه مِثلُ غريزةِ البتوليّة، مِثلُ نُفور شبهِ طبيعي من خطيئةِ النَّجاسة.

مِثلُ القديسة مارغريتا ماريا ألاكوك، التي في سن الثالثة تقوم بِنَذرِ البَتوليّة، دون أن تعرف أي شيء عما تعنيه. فعلت سانتا روزا دي ليما الشيءَ نفسَه في سن الخامسة. والقديس لويس غُنزاغا في الثامنة من عمرِه ، وهو في هذا الأمر حَسّاس للغاية لدرجة أنه يَتوقّعُ الإغراء قبلَ حُدوثِهِ. امتياز خاصٌ من الله!

عندما توجد مثلُ هذه النعمة السامية في النفس، فمن الواضح جدًّا أنّ الله لا يريدها أن تعيش حياةً مشترَكة بلا معنًى تقريبًا. إنه يريدها بالتأكيد أن تتميز في حياةِ القداسة وأن تفعل أشياءَ عظيمة لمجدِهِ.

٣. تَمَنِّي الدَّعوة

كم مرةٍ يحدث عندما ترى راهبًا يمر في الشارع، أن تقول في أعماق قلبِكَ « يا لَسعادتِه! لَعلّي أنا أيضًا لَديَّ دعوة، أيْ نعمة أن أكونَ مثلَه.«!

هذه الرغبة بالتأكيد لا تأتي من الشيطان، ولا حتى من طبيعة الشّخص نفسِهِ، لأننا نعلم جميعًا أن حياةَ الرُّهبان هي حياة مليئة بالتضحيات والتَّنازُلات.

هناك إذًا في ذلك شيءٌ فائق للطبيعة يُعجبُ ويَجذِبُ.

عندما يبدأ الشابُّ في أن تكون لديه هذه الرغبة السِّرية، فقد يُفكِّر فِعلًا أنه تحت عملٍ من الله. وعلى الرغم من أنّ هذه الرغبة غير موجودة حاليًّا، إلّا أنها إذا كانت قد وُجدت أحيانًا في الحياة، فلا ينبغي احتقارُها، بل يجب فَحصُها والنّظر في الأسباب التي تمّ التخلي عنها من أجلِها. ربما تكون نعمةً من الله وقد ضاعت بسبب سلوكٍ غيرِ لائقٍ، وربما أنّها قد بَقيَت نائمة فقط ومن ثَمَّ يمكن أن تستيقظ بالصلاة.

إنها الرغبة التي يُشعَر بها من وقتٍ لآخَر، ويَحصُل إحياءٌ لها في الصلاة أو بعد المناولة أو في أيامِ الهدوء أو في الرياضات الروحية. عندما تَتلامسُ النفسُ مع الله، يتكلم الله معها بشكلٍ أوضح.

وفي كثير من الأحيان تصل هذه الرغبة غيرُ المُحَدَّدَة إلى يقينِ الاقتناع: «نعم سأصير راهبًا؛ ما غير ذلك لا يساوي شيئا؛ هذا هو ما يناسبُني.«...

هنا يدعو الله بوضوح.

قدَّم لي صبيٌّ يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا نفسَه يومًا ما:

٤. أبتي، أنا بحاجة للصلاة. صَلِّ من أجلي!

كانت عيناه مليئة بالدُّموع.

جيد! لكن ما الذي تريد تحقيقَه؟

لديَّ رغبة كبيرة في أن أُصبِح كاهنًا، لكنني أخشى ألا أتوصّل لذلك. أخشى ألّا تكون لديَّ دعوة. لكني أريد الحصول عليها. لا أعرف ما إذا كانت هذه خطيئة، لكنني أريد هذه النعمة حقًّا!

ابتسمتُ. ما هي العلامة الأكثر وضوحًا التي أرادها هذا الصبي ليتأكد من أن الله يُناديه؟

يقول الأب دُويْلْ: هل خَطر ببالِك يومًا أن تسأل نفسَك: كيف لي أن أعرف ما إذا كانت لديَّ دعوة أم لا؟ إنّ هذا لَيكون كافيًا للحصول على إشارةٍ أكيدة إلى الدّعوة.[1]

لكنها قد تكون رغبة عابرة! بكل تأكيد. هذا هو بالضبط السبب في أنه من الضروري تنمية هذه الرغبة، والتّساؤل فيها، ثم الانتظارُ مدّةً من الوقت ليَتّضح الأمر. إنّ الأُمنيةِ التي تستمر مدّةَ ثلاثة أشهر لا يمكن أن تكون أمرًا عابرًا. وإذا استمر الأمر لمدة عام لَدَى شابٍّ في سن الخامسة عشرة، فيمكننا القَول إنه أمرٌ جادٌّ للغاية.

٥. الوَعي بباطِل أمورِ الأرض

كلُّ شيء ينتهي، كل شيءٍ باطل! هل يستحق الأمر قَضاء العُمر بأكملِهِ لأجل الحصول على هذه الخيرات البالية التي لا قيمة لها، والتي لا تستطيع إعطاء دقيقةٍ من الفرح الهادئ؟

ويَظهر هذا الشعور بطريقة خاصّة أثناء أو بعد فترةٍ وجيزة من اللهو. ما أحمق طريقة تفكير البشر وتصرُّفَهُم! كلُّها مُصطنَعة، كلّها عابِرة!

كنتُ حاضرًا في محادثة بين صبيَّين. تحدث أحدُهما عن خُططِه المِهَنِيَّة، وعن الثَّروات والشُّهرة. والآخَر يقاطعُهُ من حين لآخَر بِـ: «باه! وما قيمة كلِّ هذا؟» بِمَ يُفيدك كلُّ هذا؟ ماذا ستفعل بتصفيق وتقدير العالم كلِّه؟

لقد تأثرتُ وأردتُ أن أسألَه وحدَه.

–وأنتَ ماذا ستكون؟

–لا أعلم؛ أنا على ثقة من أن الله سيمنحني النعمة لأكون كاهنًا. لا أريد حَماقات مثل صديقي! إنه مَخدوع! لا أفهم ما هي المُتعة التي يَجدها في الرغبة في أن يكون غنيًّا وقويًّا...

ثم أضاف:

٦. هذه ليست العَظَمة!

لا تزال حالة إيڤا لاڤاليير حديثةَ العهد. بعد ظُهر ذلك اليوم، جعلوها تخرج إلى المسرح عدّة مرات لتَلَقّي تحيّة حارّة. أَظهرَ نَشوة تصفيقِ الجمهور أنهم رأوا فيها المغنية مَلكةَ المسرح. ولكن بعد فترة وجيزة من الأداء، غيَّرَت ملابسَها بسرعة وسارت وحيدةً مُتوجِّهةً إلى نهر السِّين. إنّ رؤيتَها السّارحة، والخُطوة المتردِّدة، والجَبهة المتجعِّدة، تُشير بوضوح إلى أنها كانت تعاني من عاصفةٍ في قلبِها. بالضّبط! وكانت من المرارة اليائسة التي يتركها المجدُ البَشريّ الكاذب في القلب، ذلك المجدُ الذي لا يقدر إلا على إشباع أولئك الذين ليس لديهم مشاعر نبيلة. كانت إيڤا لاڤاليير تفكر في إلقاء نفسِها في النهر حتّى تنتهي إلى الأبد من تلك الحياة التي لا تَعرف كيف تَمنحها ما تحتاج إليه. وصاحت في البَحّار الذي أوقفَها وهي خارجةٌ عن نفسِها:

أُتركني في سلام! أنا أتعس امرأة في هذا العالم! أنا يائسة! ثمّ في وقتٍ لاحق، عندما أَبرزَت نذورَها الرُّهبانية بعد فترة المبتدئات في أحدِ الأديرة، قالت للصَّحفيين الّذين كانوا يريدون إجراء مقابلة معها لنشر التفاصيل المؤثرة لذلك التغيير الاستثنائي:

قولوا للجميع إنني أسعد امرأة في العالم!

أحيانا هذا الازدراء للعالم يقترب من الكَراهية. إنّه شعورٌ كان لدى يسوع نفسِه، لأنه لعن العالم ولم يُرِد أن يصلي من أجله. دعونا نلاحظ أنها ليست كراهية تُجاهَ البشر بل تُجاه طريقةِ التفكير والتصرف والتقدير للأشياء التي لدى أولئك الذين يعيشون وَفقًا لفلسفةِ العالم.

٧. الانجذاب للصلاة

إنّها رغبة لا توصف في الشعور بالاتحاد بالله، والتحدث معه، والصلاة. الرغبة في البَقاء بِمُفردِهِ – وقد أقول مَخفِيًّا -، وفي أن يُحب ويفكّر ويصلّي. يَشعر الشابّ بأنه يرغب في الصلاة، ويغلب عليه الخوف من عدم كفايةِ الصلاة، وفي الصلاة يجد الهدوء والفرح لأنه يصلي أو لأنه قد صلّى.

أَلَم تَدخلوا كنيسةً أبدًا عند غروبِ الشمس؟ أُدخلوا ولن يكون غريبًا أن ترَوا رَجُلًا شابًّا في زاويةٍ ما يصلي.

تَصيرُ الحياة الأفخارستية كثيفةً بطريقة شِبه طبيعية. من بينِ الشباب الذين قد ساعَدْتُهم في دعوتِهم، يمكنني أن أؤكد أنه لم يكن هناك أيٌّ منهم لم يكن يتناول يوميًّا. ومع ذلك، ليس من الضروري أن يتناول كل يوم لنتمكن من القول إن الشابَّ مُنجَذِب إلى الصلاة. عندما يُرى الانتقال من المناولة الشهرية إلى الأسبوعية، أو من النقص شبهِ الكامل للصلاة إلى الاقتناع أو الحاجة إلى الصلاة كثيرًا، يُمكن أن يكون ذلك علامةً على أن الله يريد أن يُسمَع صوتُه.

ذات يوم أجريتُ محادثة مع شابٍّ يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، وكان أكثر ما لفت انتباهي هو قلقُه، لأنه قال إنه يصلي قليلًا إأنه لا يعرف كيف يصلي. كانت هذه مشكلتَه. بعد ثلاثة أشهر كان بالفعل لديهِ دعوة.

قال لي آخَرُ إنه يتلو ستَّ مَسبحاتٍ في اليوم.

–وكيف يمكنك أن تفعل ذلك؟ أثناءَ حِصصِ الدّروس؟

-لا! في الشارع، وأثناء العودة إلى المنزل، وفي الطابور، وفي انتظار المعلِّم، ثم أقول بهدوء اثنتين في المنزل أو في الكنيسة.

من الواضح أنّ الدعوة كانت بالفعل مِثالًا أعلى رائعًا في أُفُق نفسِهِ.

غالبًا ما يكون كلُّ هذا مصحوبًا بتذوّق الصلاة وبالتّعزية الروحية. فالصبي الذي يشعر بهذه الأفراح لن يذهب إلى أيِّ مكان آخَر ليبحث عن سعادتِه؛ لا يحتاج إلى أكثر من ذلك لِيفهم أن الحياة الرُّهبانية لا بدّ أنها حياةُ الفردوس والسعادة الحقيقية.

٨. الرَّغبة في التألّم

يبدو لنا من الظُّلم أن نعرف أن يسوع تألم من أجلنا بينما نستمتع نحن بالعديد من وسائل الراحة الصغيرة. إن التفكير في الكثير من الخطايا والكثير من الجُحود تُجاهَ الله من الناس يترك الغالبية – وهذا صحيح – غيرَ مبالين؛ لكنه بالتّأكيد يجرح آخَرين في الصّميم ويجعلهم يشعرون بواجب التألّم والتضحية بأنفسِهم لأجل التّشبُّه بيسوع ولإصلاح ما يفعُله الكثيرون من الخَطأة.

في كثيرٍ من الأحيان لا يفكرون في الأسباب. يدفعهم حبُّهم لله للقيام بذلك.

من المُحتمَل أنه تائب مُخلِص. في بعض الأحيان، بدلاً من ذلك، يكون الأمرُ أشبه باحتياج للقلب الذي يفهم عدم إمكان حبِّ الله بِدون ألم. عندها تُرى هذه الأنفس وهي تَستسلم للتضحية، وتتخلى طَواعيةً عن الكثير من الأوهام، وحتى عن التسليات المشروعة، وتأتي بأدواتٍ للتّكفير لجَعلِ الجسد يتألّم، وبالتالي تَجدُ الفرحَ والسّلام للنفس، وتشعر بالإحساس بأنها تبدأ بجِدّيّة في حبِّ الله.

لذلك تَنمو لديهم التَّقوى تُجاهَ القلب المقدَّس، التي هي تقوى حُبٍّ وتعويض، فهُم معجَبون بالرُّهبان لأنهم يعيشون حياةَ التضحية ويمارسون نَدمَ القلبِ الذي يؤدي إلى الإماتة، لا فقط داخليًا بل خارجيًا كذلك.

لقد عرفتُ شابّين كانا خلالَ الفسحة، بعد الصلاة قليلاً، يبحثان عن مكانٍ خَفيّ و... كانا يمشيان على ركبتهما على الحجارة... كي يتألّما. كان صبيٌّ يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا يَضع لوحًا على مرتبةٍ مُدّعيًا أنه هكذا ينام براحةٍ أكبر؛ وآخَر – مثل القديس لويس – كان يُقلِق نومَه بالحَصى العالقة بين المِلاءات. ورأيت آخَرين ينامون على الأرض، وكم من الآخَرين سألوني – وليس عبثًا – عن أدواتٍ لِلتّكفير!

هذه واحدة من أكثر علامات الدعوة صَلابةً وتأكيدًا؛ ومن هذه الصفحات أَوَدّ أن أقول للجميع إنه يجب علينا تقديم الحياة الرُّهبانية كما هي حقًّا، أي حياةٍ لِلتّخلّي والتضحية. لا فائدة من محاولة التخفيف مِن هذا الجانب غيرِ المريح من الحياة الرُّهبانية. وبالإضافة إلى ذلك، فلن يكون الأمر صادقًا إنْ أَخفَينا ما هو الأكثر جاذبيةً في الحياة الرُّهبانية.

قبل أيامٍ قليلة فقط، قدَّمَت إمرأةٌ شابّة، أُرشِدُها روحيًّا، نفسَها إلى راهبات الفرنسيسكان مُرسَلات مريم ليتم قَبولُها في رَهبنَتِهِنَّ. بالعناية الإلهية الأولى، بدأت الأخوات في تثبيط عزيمتِها بإخبارِها أن قواعدَهُنَّ صارمةٌ وصعبةٌ للغاية، وأن قليلاتٍ مِنهُن كُنَّ قادراتٍ على الصّمود وأنّ مُعظمَهنَّ اضطرَرن إلى العودة إلى الوراء. في البداية كانت قَلِقةً نوعًا ما، لكنها أرادت بعد ذلك الذَّهاب إلى دير المبتدِئات في غْرُنّاتِرتا لترى وتتذوق ما هو الواقع. استقبلَتها الأمّ معلمةُ المبتدئات قائلةً: «مستحيل! قاعدتُنا صعبة جدًّا. لن تكوني قادرةً على التحمُّل.«!

لقد امتدحتُ طريقة عمل هؤلاء الراهبات اللواتي أثبَتنَ جِدِّيَّتَهُنَّ في تَعامُلِهِنَّ مع المترشِّحات. ومع ذلك، فقد كان لذلك تأثير عكسي على الشابّة، كما قالت لي:

"إذا كان عليَّ أن أتألّم، فهذا أفضل بكثير"، فأنا لا أريد أن أُصبِح راهبة لأكون مُرفَّهة، لكن لكي أَصلِب نفسي مع يسوع.

فالحقيقة أنّ مَن لدَيهِ دعوة حقيقيّة لا يَخشى التضحية؛ من ناحية أخرى، إذا طلب شابٌّ ما اعتناقَ الحياة الرُّهبانية وظل مرتبكًا من فكرة أنه سيَضطر إلى المعاناة والتخلي عن كل شيء، فمِن المستحسَن المُضيُّ ببطءٍ معه وجعلُه ينتظر لفترة أطول قليلاً، وطالما لم يبدأ بعدُ في الرغبة في المعاناة، فَلا يَكُنْ لَدَينا إلّا حماسٌ قليلٌ لِدعوتِه.

الحياة الرهبانية هي فِردَوس، لكنَّ ذلك لأنها صَلْبٌ مستمر: فهي ليست فرحًا بحسب العالم، بل هي نَقيض فرحِ العالم.

لا نريد دعوات ‹ماء الورد›، من شبابٍ يريدون أن يقدّموا أنفسهم لله... إلى حدٍّ ما فقط. فلْيَتراجعوا عن ذلك مُبكِّرًا! تحتاج الحياة الرهبانية إلى أبطال، وفقط مَن يريدون أن يتألموا ويتبعوا مَلِكًا مُتوَّجًا بالأشواك ومُغطًّى بالبُصاق، فمِثلُ أولئِكَ قد يُصبح راهبًا حقيقيًّا، وبذلك يكون قديسًا وسعيدًا ومَدعوًّا من الله.

٩. روحُ السَّخاء تُجاهَ الله

إذا كان لَدي عدمُ الرِّضى أبدًا بما يَفعلُه من أجلِ الله، ولا يَقول أبدًا ‹هذا يكفي›، ويرغب دائمًا في القيام بِالمزيد؛ إذا بدأ يشعر ببعض القلق، وبِنَفاد صبرٍ مقدس لأجل فعلِ المزيد من أجلِ الله دائمًا؛ فإننا أمام حبٍّ حقيقيٍّ ليسوع، وأمام الفَهم العمليّ لِما فعله من أجلنا، ولِبُطلان وضُعف جهودِنا في أن نحبه وأن نرد له لُطفَه الرائع وتَفَضُّلَه علينا.

إن الرغبة في حب يسوع إلى درجة الجنون هذه، وهذا التعَذُّب المستمر لأنهم لا يُحبون الله كما يريدون، وهذه الرغبة في فعل مَن يعرف ماذا ليُظهروا حُبَّهم، فهذا يَدفع هذه النفوس إلى بطولاتٍ حقيقية في السَّخاء. إن حبَّ الله هو لهم فرحٌ وعذابٌ في نفس الوقت. فرحٌ لأن لديهم هذا الحبّ حقًّا، وعذابٌ لأنه ليس كما يريدُونه وبِالكَمِّ الذي يريدونه.

حالة تَصوفية؟ ليس بالضبط.

لقد رأيتُ نفوسًا كهذه وتحدثتُ إليهم عن الدعوة. لم يفكر معظمُهم أبدًا فيها، لكنَّ اقتراحي بدا طبيعيًّا جدًّا بالنسبة لهم لدرجة أنهم لم يشُكّوا في أن الله كان يدعوهم ليكونوا مِلكًا له كُلّيًّا وإلى الأبد.

١٠. الرّعب من الخطيئة

إنه خوفٌ صِحّيّ من الخطيئة، والتي يَعتبرونها الشرَّ الحقيقي الوحيد للنفس. بينما يشاهدون الأصدقاء والمعارف وهم يَغرَقون في الفساد وفي الدّمار الروحي، فإنهم يتوقون إلى وسيلة من شأنِها أن تحميهم من كثرة هذه المخاطر. إنهم يبحثون عن طريقة حياة تكون فيها الخطيئة مستحيلة.

١١. الرغبة في تكريس الحياة من أجل توبة أو خلاص شخصٍ عزيز

مثلَ ابنةِ الملك لويس الخامس عشر، التي أصبحت راهبة لإنقاذ نفسِ والدها، والذي عاش حياةً قليلةَ الجدارة.

تعرّفتُ على شابٍّ ذي مشاعر حنونة ورقيقة قدّم دعوتَه لأجل الخلاص الأبدي لوالدته، وبعد ثلاثة أشهرٍ قرّر شقيقُه أن يُصبح راهبًا وقدّم «اختيارَه» لخلاص والدِهِ. اليومَ هما الاثنان راهبان؛ طارت الأم إلى السّماء والأب يعيش حياةً مسيحية حقيقية.

١٢. رِقّةُ الضمير

هناك نفوسٌ حساسة جدًّا للَمسةِ النعمة وللحياة الروحية، وهي تَتوخَّى الحَذر حتى من أدنى الزّلّات. إن مُجرّدَ خوفِها من الإساءة إلى يسوع، الذي تحبه كثيرًا، يَدفعُهم إلى القيام بِأيّ تَخَلٍّ. إنها نُفوسٌ حسّاسة مُخلِصة ويَستدرِكون أصغرَ الزّلّات بمَهارة مدهِشة. إنها نفوسٌ مَدعوّة إلى الكمال، ومستعدة لأَسمى التَّطلُّعات.

١٣. الخوف من وجودِ الدّعوة

أحيانًا يوجَد خوفٌ من أن يكون لديهم دعوة، فيستبعِدون كلَّ الأفكار حول هذا الأمر، والتي تعود بإصرار، فيُصلّون من أجل ألّا تَكون لديهم. «أتمنى أن يُبعِدَ الله مثل هذه الدعوة عني، والتي من شأنها أن تُدمّرَ العديد من القِلاع التي قُمتُ بِتصميمِها والاعتزاز بها». هناك شكٌّ مستمرّ في أن هذا أو ذاك يريد أن «يصطادَني» للحياة الرُّهبانية، ويتم تجنُّب خطرِ الذَّهاب مع الرُّهبان أو مع الشباب الذين لديهم دعوة، خوفًا من أن تقع المحادثة حول هذا الأمر الخطير؛ ويخافون الرّياضات الروحية، ويخافون كذلك أن يَكونوا طيّبين أكثر من اللازم وممارِسين لِلأسرار المقدسة، ومع ذلك لا يريدون أن يَصدُر عنهم شرٌّ لأن نفوسَهم مستقيمة مع الله.

كلُّ هذا – كما يقول الأب دُويْلْ[٢] – هو أحيانًا علامة عن دعوة حقيقية.

يُمكن للشيطان – وهو ذكي جدًّا – أن يتوقّع احتمالات أنهم، إذا أصبحوا كهنة أو مرسَلين، فإنهم سوف يفعلون الكثير من الخير، ولهذا السبب يحاول وضعَ تلك المخاوف التي لا أساسَ لها في قلوبهم حتى يُبعِدَهم عن الطريق الذي سيَكون خلاصًا وتقديسًا لهم وخلاصًا لِنفوسٍ كثيرة.

والأمثلة على الدعوات التي بدأت في هذا المجال، بالاتّجاه العكسيّ وبِتعمُّد الهروب منها، هي كثيرة.

يُقرأ عن الأب ميغِل أَغُستين پْرو، من الرَّهبنة اليسوعيّة، أنه لم يَكن يَحتمل رؤية اليسوعيين بأيّ شكل من الأشكال. لقد كان غاضبًا منهم لأنهم، لِكونهم مرشدين روحيين لأخواته، وجَّهوهُنَّ نحو دير الحبيسات. استولى عليه حزنٌ شديد وهرب إلى الغابة البعيدة؛ لم يكن يريد أن يرى أحدًا.

بحثَت أمُّه عنه، ووجدته، وقادَته إلى المنزل وأقنعَته بالقيام بالتّمارين الروحية... مع اليسوعيين المكروهين.

لقد ذهب... وبِه خوفٌ من أن يَجد نفسَه أمام الدّعوة. إنّ ذلك لَيكون خِزيًا كبيرًا له. وقد دعاه الله هو تَحديدًا، ولِحُسن حظِّه أنه اتّبع صوتَ الرب. وصار كاهنًا وشهيدًا، مجدًا لِلمِكسيك، ولِلرَّهبنة اليسوعيّة ولِلكنيسة.

١٤. الغَيرة على النفوس

إن الحديث عن الرسالات البعيدة يُسحِرنا ويُحرّك مشاعرنا. وإن التّفكير في ملايين النفوس الذين ما زالوا لا يعرفون يسوع يجعلنا نبكي. وفي حين يظلُّ الآخَرون باردين، كما لو كان شيئًا لا يمَسُّهم، نَشعر نحن بتَداعيات شديدة. يبدو لنا أن لدينا

التزاماتٍ تُجاهَ تلك النفوس، وأن علينا أن نفعل شيئًا لمساعدتِهم، وأنّه لا يمكننا أن نقفَ بهدوء مَكتوفي الأيدي، ونَكتفي بِكلمات التعاطف العقيمة.

أحيانًا يبدو هذا الفِكر كما لو أنه يَلِحُّ علينا ويُحْضِر لنا في مُخيّلتِنا بطريقةٍ حيَّة رؤيةَ نهرٍ من النفوس التائهة في طريقِها، وهي تَمُدُّ أيديَها إلينا طالبةً المساعدة بتَضرّع.

صورة يسوعَ المصلوب الذي يصرخ: أنا عطشان! إنه لَيُحزِن نفوسَنا، ونفهم المعنى العميق لِتَأوُّهِ المخلِّص: «ما فائدة دمي؟.[3]»

غالبًا ما توجَد هذه المشاعر الإيثاريّة، وهي زهرةُ المحبة المسيحية، في النفوس الشابّة، وهي علامة واضحة على أن الله يدعو إلى المَثلِ الأعلى المُتمثِّل في الأُبوّة الروحية، وهي التعبير الأكثر أصالةً عن المحبة وعن الحياة المكرسة لِخيرِ الآخَرين.

١٥. الهُروب من الأنانيّة

الشّعور بالأُخوة العالمية، وحبُّ الفقراء. مَن يَسعون إلى المساعدة بالصَّدقات، ويدافعون عن أضعفِ الرِّفاق الذين يتعرضون للمُضايَقات بشكلٍ ظالم من قِبَل غيرِ المؤَدَّبين.

١٦. الشُّعور بالغِيرة المُقدَّسة من الرُّهبان

عندما نراهم يَمرّون، تأتي إلينا أُمنية خَفيّة: «سُعداء! آه لو كنتُ مِثلَهم! لا بدَّ أنّهم في غايةِ السّعادة«!

١٧. الهُروب من الرَّداءة

الروحُ المسيحية القِتالية: على استعداد دائمًا للدِّفاع عن إيمانِهم. التَّلذُّذ من شرف كونِهم جنودًا للمسيح. والرغبة في تقديم أشياءَ عظيمة ليسوع.

(*)ولا يزال بإمكانِنا مواصَلة هذه القائمة، لكنْ هذا يكفي في الوقت الحالي.

بقولِنا إنّ هذه «علاماتٌ للدّعوة» لا أعني أنه عند امتلاك أيٍّ من هذه القَناعات أو الرّغبات، فإن المَرءَ لديه كلُّ ما هو مطلوب للتمكّن من استنتاج وجود دعوةٍ حقيقية؛ لكنني أعني فقط أنّ بعضًا من هذه الـ«علامات» هي بالفعل مؤشِّرٌ بالنسبة لي – أنا ككاهنٍ أو مُرَبٍّ – لكي أفكّر – بشيءٍ من اليقين – في أنّ الله قد وضع عينَيه على نفسِ ذلك الشابّ ليُعطيَه الدّعوة، التي، كي تكون حقيقيةً وصادقةً، لا بدَّ أن يكون لديها عَناصر أخرى، كما سنقول لاحقًا.

[1]الأب وِليام دُويْلْ، من الرّهبنة اليسوعيّة.، دعوات، ص ٣.

[2]الدّعوات، ص ٧.

[3] «Quae utilitas in sanguine meo»